مادة الأدب الإسلامي / المرحلة الثانية

د. ميسون محمد عبد الواحد

المحاضرة السابعة عشرة

عنوان المحاضرة: (تحليل خطبة حجة الوداع – والرسائل النثرية)

أولا– من خطبة الرسول– صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع:

قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم:

الحمدُ لله نحمدُهُ وَنَسْتَعِينُه، ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَتُوبُ إليه، ونَعُوذُ باللهِ مِنْ شُرورِ أَنْفُسِنا ومِنْ سيّئآتِ أَعْمَالِنَا مَن يَهْدِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضَلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ . وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحْده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبدُه ورسولُه. أوصيكُم عبادَ الله بتقوى الله،

وأحثّكم على طاعته! وأستفتح بالذي هو خير.

أَمَّا بعد:

أيّهَا النّاس، اسْمَعُوا منّي أُبّينْ لَكُمْ، فَإنّيَ لاَ أَدْرِي، لعَليّ لاَ أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامي هَذَا، في مَوْقِفي هذا.

أَيُهَا النَّاس:

إنّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَليكُمْ إلى أنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ، كَحُرمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا في شَهْرِكُمْ هَذَا في بَلَدِكُم هَذَا.

أَلاَ هَلْ بلّغْتُ، اللّهُم اشْهَدْ.

أَيهَا النّاسُ:

إنّما المُؤمِنُونَ إخْوةٌ ، فَلاَ يَحِلُّ لامْرِىءٍ مَالُ أَخيهِ إلاّ عَنْ طيبِ نفْسٍ منهُ.

أَلاَ هَلْ بلّغْتُ، اللّهُم اشْهَدْ.

فلا تَرْجِعُنّ بَعْدِي كُفاراً يَضرِبُ بَعْضُكُمْ رقابَ بَعْض فَإنّي قَدْ تَركْتُ فِيكُمْ مَا إنْ أَخَذتمْ بِهِ لَمْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ، كِتَابَ اللهِ وَ سُنَّة نَبيّه.

أَلاَ هَلْ بلّغتُ، اللّهمّ اشْهَدْ.

أيها النّاسُ:

إن رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وإنّ أَبَاكُمْ واحِدٌ ، كُلكُّمْ لآدمَ وآدمُ من تُراب، إن أَكرمُكُمْ عندَ اللهِ أتْقَاكُمْ، إن الله عليم خبير وليس لعربيّ على عجميّ فَضْلٌ إلاّ بالتّقْوىَ.

أَلاَ هَلْ بلَّغْتُ، اللّهُمّ اشهد

قَالُوا: نَعَمْ

قَال: فلْيُبَلّغِ الشاهدُ الغائبَ.

ثانياً- تحليل الخطبة:

إن هذه الخطبة الشريفة تعد أنموذجا رائعا للخطابة العربية في عصر صدر الإسلام. ويمكن اجمال سماتها الفنية على النحو الآتي:

١- افتتحها الرسول- صلى الله عليه وسلم- بحمد الله وطلب غفرانه ، وصارت عباراتها مما يكرره الخطباء أيضا في أغلب خطبهم ، ويختمون الحمد بالشهادة على الطريقة نفسها التي ختم بها الرسول الكريم مفتتح خطبته.

٢- ثم الفقرة الثانية التي تؤكد على تقوى الله لترسم نهجا آخر للخطباء ينتقلون فيه بعد حمد الله وطلب عفوه الى مخاطبة الناس بأمرهم بالتقوى.

٣- ثم يبدأ بعدها موضوع الخطبة بعبارة: **أما بعد** ، التي سنت للخطباء أيضا هذا النهج في التدرج بين المعاني.

٤- وموضوع الخطبة ليس واحداً ، وإنما هو اجمال لأهم مبادئ الدين التي أراد الرسول - صلى الله عليه وسلم- أن يذكر الناس بها ويقرها في نفوسهم ، وقد بدأها بالخطاب المباشر الذي كرر بين مقطع وآخر: **أيها الناس**، حيث خطابه للناس عامة لا لقريش أو المهاجرين أو الأنصار أو العرب خاصة وإنما هو خطاب موجه لجميع الناس يبلغونه للآخرين (**فليبلغ الشاهد الغائب**).

٥- يعتمد الرسول - صلى الله عليه وسلم- على المقاطع القصيرة التي تركز المعاني وتثبتها في نفس السامع إذ يؤدي كل مقطع من الخطبة معنى متكاملا من المعاني الدينية التي وصفها الرسول - صلى الله عليه وسلم.

٦- اعتماد أسلوب التكرار في قوله: (**لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا ... كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا**).ليجتذب الرسول أسماع الحاضرين

وأذهانهم بعبارة يكررها معتمدة على أسلوب الاستفهام: **ألا هل بلغت** ، ويعقبه بعبارة: **اللهم اشهد**. ليقر في نفوس السامعين مبادئ الدين ويلزمهم بالأخذ بها وتبليغها.

٧- كما أن الخطبة تبدو خالية من السجع والجناس أو أي صنعة متكلفة ، كما أن مفرداتها واضحة وضوح المبادئ التي تدعو إليها، فليس فيها غريب ولا ثقيل أو مستهجن. ولا عجب في ذلك فالرسول – صلى الله عليه وسلم– كان سيد البلغاء، وأخطب الخطباء، وخطابته تمثل الأسلوب الرائع للبيان العربي بعد القرآن الكريم.

أما الأسباب التي أدت الى قلة خطب الرسول – صلى الله عليه وسلم– إذا قيست بأحداث زمانه الكثيرة والمهمة فهي:

١- إن أهم سبب في قلة خطب الرسول – صلى الله عليه وسلم– إذا قيست بأحداث زمانه يعود الى أنهم أدرجوا خطبهم مفرّقة العبارة ضمن كتب الأحاديث النبوية. فعبارة في باب التفسير، وأخرى في باب الأدب ، وأخرى في باب الصلاة مما جعل من المتعذر جمعها ومعرفة العبارة التي تربطها مع أختها، إلا إذا وردت بالصدفة كاملة في أحد كتب التاريخ أو الأدب.

٢- ونقل البعض الآخر من خطبه في كتب الأمثال حين اختيرت أقواله جملا جرت مجرى الأمثال.

وتناقل الصوفية في كتبهم بعض العبارات والأقوال التي يتمثلون بها في دعوته – صلى الله عليه وسلم– الى الزهد والموعظة وهكذا تتداخل خطبه وأقواله – صلى الله عليه وسلم– مع أقواله وأحاديثه. وما وصل إلينا متكاملا من هذه الخطب قليل إذا قيس بالأحداث الهامة التي كانت تقتضي وقوفه – صلى الله عليه وسلم– ليخطب بين الناس موضحا لهم المواقف ومبينا لهم ما يجب عليهم القيام به فضلا عن توجيهه المستمر للمسلمين.

٣- **ويرى د. زكي مبارك** بأن الحركة السياسية والأدبية والإجتماعية في عهد النبي لم تُصوّر بصورتها الحقيقية فهذا الرجل غيّر أمة بكاملها في عشرين عاما، ولقي آلاف المصاعب، أفيمكن الاقتناع بأنه لم يقل أكثر من عشر خطب، وأن أنصاره لم يقولوا من الخطابة والرسائل إلا ما نقله عنهم الطبري وغيره من المؤرخين؟

٤- **ويعلل د. شوقي ضيف** هذه الظاهرة بأن أكبر الظن أن خُطبه أصابها ما أصاب خطب الجاهليين، فإنها لم تدوّن لحينها، وبعد العهد بين عصرها وعصر تدوينها. ومع ذلك فقد احتفظت ذاكرة الرواة ببقايا منها تحمل لنا خصائصها.

ثانيا- الرسائل النثرية في العصر الإسلامي)

أ- فن الرسائل في العصر الإسلامي:

ازدهرت كتابة الرسائل وتطورت في عصر صدر الإسلام منذ استقطاب الرسول صلى الله عليه وسلم مجموعة طيبة من الصحابة حوله ممن يتقنون الكتابة ؛ مما يدل على أن النشر بنوعيه الترسلي والأدبي قد تطور في هذه الفترة وخاصة (الرسائل) و(الخطابة) وكتب التاريخ القديمة مملوءة بالرسائل ذات الأهداف المختلفة والأنواع المتعددة .

وكانت الكتابة معروفة في مكة قبل بعثة الرسول- صلى الله عليه وسلم- ولكنها قليلة جداً، وعندما نزل القرآن الكريم حث على الكتابة، فقد قال تعالى: { يا أيُّها الذين آمنُوا إذا تدايَنْتم بدَينٍ إلىَ أجَل مُسَمى فاكتُبُوه }، وقال تعالى: { اقرأ وربك الأكرم الذي علّمَ بالقلم } وقال تعالى: { ن. والقلم وما يسطرون}.

والكتابة الفنية في عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم- تنحصر في كتابة الرسائل، وكتابة الرسائل امتداد للحديث العادي ولذلك نجد الرسائل تخلو من التكلف فهي سهلة العبارة خالية من عبارات التفخيم تنصب على الغرض الذي أنشئت من أجله. وتشمل الرسائل في عهد الرسول- صلى الله عليه وسلم: الرسائل إلى الملوك والأمراء، والرسائل إلى عمال الدولة، بالإضافة إلى الرسائل الشخصية، وفي عهد الخلفاء الراشدين كانت الرسائل ترسل من الخليفة إلى الأمراء والقواد والقضاة. وكانت الرسائل تشتمل على وصايا وتعليمات كما أنها تشمل المناشير التي تعمم للمسلمين، وطريقة كتابة الرسالة في زمن الخلفاء الراشدين لم تختلف عما كانت عليه في زمن

الرسول– صلى الله عليه وسلم– إلا في بعض التفصيلات التي تتطلبها مهام الدولة الإسلامية وقد توسعت في عهدهم وكثر عمالها وموضوعاتها.

ويمكن وصف الإطار العام لهذه الرسائل على النحو الآتي:

١– فمن ناحية موضوعات الرسائل فأهمها الدعوة إلى الإسلام : وهي المهمة الأولى للنبي – صلى الله عليه وسلم– وذلك لتبليغ الدعوة في دائرة أهله وعشيرته ومحيطه العربي والمحيط الإنساني وقد تحقق له ذلك من خلال الرسائل الشفوية، وملاقاة الناس أفراداً وقبائل، والرسائل المدونة (كتب ورسائل).

٢– إن الرسول – صلى الله عليه وسلم – لم يدخر جهداً لنشر الإسلام، وقد عبّر– صلى الله عليه وسلم – عن ذلك بإرساله لعدد من الرسائل إلى ملوك وأمراء العالم المعاصر خارج الجزيرة العربية يدعوهم فيها إلى الإسلام، فجاءت هذه الكتب وسيلة دعوية هامة، لإعلام الناس وإبلاغهم بدعوة الإسلام. وتوجه سفراء الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالرسائل إلى النجاشي ملك الحبشة، وإلى المقوقس عظيم القبط في مصر، وإلى كسرى ملك الفرس ، وإلى هرقل عظيم الروم، وإلى المنذر بن ساوى ملك البحرين، وغيرهم من ملوك وأمراء.

٣– ومن ناحية النماذج المتعلقة بالرسائل فهناك رسالته – صلى الله عليه وسلم– إلى النجاشي ملك الحبشة: إذ ذكر الواقدي أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كتب إلى النجاشي كتابا، وأرسله مع عمرو بن أمية الضمري ، فيه: **(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة، أسلم أنت، فإني أحمد إليك الله، الذي لا إله إلا هو، الملك القدوس، السلام المؤمن، المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم، وروح الله، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول).**

ورسالته صلى الله عليه وسلم إلى كسرى ملك فارس:

وقد أرسلها النبي – صلى الله عليه وسلم– مع عبد الله بن حذافة – رضي الله عنه – كما ذكر الواقدي ، وكان فيها: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله،

فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم ، فإن أبيت فعليك إثم المجوس) .

ب- سمات الرسائل النثرية في العصر الإسلامي:

١- فبنية الرسالة تتشكل من: البسملة - العنوان (من فلان إلى فلان)- السلام والتحية -التحميد لله تعالى- التخلص وفصل الخطاب وهي قولهم (أما بعد)- المضمون : وهو غرض الكاتب من الرسالة - الختام : بعبارة تؤذن في نهاية الرسالة مثل (والسلام عليكم ورحمة الله) التذييل بتاريخ الرسالة واسم كاتبها.

٢- سهولة الألفاظ ووضوحها، وقد قصد منها الإفهام والتبليغ.

٣- الإيجاز والإسهاب وفق مايقتضيه المقام.

٤- تنويع مطالع الرسائل وخواتمها:

وقد تجلت هذه الظاهرة في كثير من الرسائل النبوية فكان بعضها يستهل بالبسملة، كما قد استهل بعضها " باسمك اللهم " وهذا الاستهلال كانت تفتح به الرسائل قبل الاسلام. وقد استهلت بعض الرسائل النبوية ايضا بالسلام والتخليص الى الغرض المقصود بعده مباشرة ، كما افتتحت بعض رسائل النبي- صلى الله عليه وسلم- بـ " أما بعد " كرسالته - صلى الله عليه وسلم- الى المنذر بن ساوى ملك البحرين . أما كتاب صلح الحديبية فإنه لم يفتتح بالبسملة ولا مهد له بحمد الله لأن رجال قريش كانوا حريصين على عدم ذكر أي لفظ إسلامي فيه؛ لأن في ذلك دليلا على اعترافهم بنبوة الرسول ودعوته، ولذلك ابتدأ الكتاب باسمك اللهم كما كانت تكتب الرسائل في الجاهلية.

اما ختام الرسائل فقد حرص منشؤ الرسائل أحيانا على ختام رسائلهم بالدعاء تبركا وتيمنا.

وقد حرص منشؤ الرسائل غالبا على ختام رسائلهم بتعابير شديدة الوقع قوية اللهجة وقد يكون بعضها جامعا لفحوى الرسالة.

٥- كانت الرسائل في العصر النبوي بعيدة عن التزويق والتصنع في سبك الالفاظ ، ورصف الجمل والافتنان في المعاني.

٦- **الاقتباس من القران الكريم ، وأثره في الرسائل:**

من أبرز السمات التي تميزت بها الرسائل في عصر صدر الاسلام ، الاقتباس من آيات القران الكريم، وتضمينها في مقدمة الرسائل . ويبدو ذلك واضحا في مكاتبات الرسول – صلى الله عليه وسلم – ولا سيما رسائله الى أهل الكتاب خاصة ، والى من راسل من الملوك الأعاجم لدعوتهم الى الدين الجديد ، ولعل تفسير ذلك أنه – صلى الله عليه وسلم – قد اتخذ من تلك النصوص القرآنية المقتبسة شواهد بينة على صدق نبوته ، ودلائل واضحة على ماجاء به ، يؤكد ذلك أنه – صلى الله عليه وسلم.

٧- كان ينتقي من تلك الآيات القرآنية ما يناسب حال من يخاطبهم ، ويختار منها ما يشير الى عقائدهم ورسلهم ، وما ورد في كتبهم.

ج- تضمين الأمثال والشعر في الرسائل

:

لقد كان منشىء الرسالة غالبا ، يراعى في ادراج الشعر والأمثال في طيات رسالته ما يقتضيه حال الخطاب ، فياتي به للتدليل على مايسوقه من أفكار ولاستثارة حماس المخاطبين ، أو استرداد عواطفهم وغير ذلك من المقاصد التي توخاها الكتاب في رسائلهم.